للنقد الخالص

من عجائب الفهم ...؟!

للأســـتاذ زكي طليمات
مفتش شؤون التمثيل بوزارة المعارف

للنقد الأدبي اليوم في مصر حركة ونشاط ، وكأن الأدب في مصر ، وقد تأثر بالهزة المنيفة التي أنزلتها الحرب القائمة بالنظم والأوضاع في حياة العالم بأسره ، يختلج اليوم اختلاجات عنيفة ويتحوى وينقبض شأن كل كائن يتهيأ لحركة عنيفة ، أو يتحفز لوثبة قادمة

والحرب والنقد شيء واحد ، فالحرب — كما قرر بعض علماء الاجتماع — وقفة تقفها الإنسانية تراجع فيها نظمها وما كانت عليه ، لتتدارك ما « تضخم » من طفيلات المذاهب ، وتفتح عروقها لتتفصد بما طغى عليها من الأوشاب والفضول ، والنقد في طبيعته ووسائله ومقاصده لا يختلف عن هذا

وقيام هذه الحركة النقدية في مصر اليوم جدير بالاهتمام حري بالتأمل ، يبعث الارتياح في نفس كل تواق إلى أن يرى الأدب في مصر يقتحم مناطق جديدة من النشاط الذهني ، ويعمل على أن يتخلص من علله وأمراضه . فالنقد شاهد على حيوية الأدب ، وفيه ما ينهض دليلاً على أن الذهن يتطلع ، ويؤمل ، ويراجع ، ويتبصر ، وينصب الميزان الصحيح

وآخر ما قرأناه في هذا الموضوع نقد بعنوان « من عجائب الاجتهاد » بإمضاء (ناقد أديب) ، تناول في نقده هذا مسرحية « مفرق الطريق » للدكتور بشر فارس

و « مفرق الطريق » مسرحية أخرجها مؤلفها إلى الناس منذ عامين فدوّت في عالم التأليف المصري دويًّا واسعاً ، دفع الأقلام إلى تناولها بين مادح ومستغرب ، وكانت (الرسالة) الغراء معرضاً لما دبجته هذه الأقلام ، وقد كان لي سهم في الكتابة عن هذه المسرحية ، فبسطت دقائقها ، وكشفت عن مغانيها الخفية ، وبينت أصالتها في الرمزية المستحدثة ، وقررت جدتها في عالم التأليف المصري للمسرحية

قرأت نقد (الناقد الأديب) وكان أول ما عجبت له أن يخرج ذلك المقال متأخراً ، بعد أن مضى على ظهور المسرحية أكثر من عامين ، وبعد أن خبت النار التي اشتعلت حولها . عجبت لهذا ثم عجبت لما هو آخذ من هذا ... مما يصح أن يقف القارئ عليه خلال مطالعة مقالي هذا ليشاطرني عجبي ، وليتنهي إلى ما انتهيت إليه

* * *

يزعم (الناقد الأديب) أن الفكرة التي تقوم عليها (مفرق الطريق) توافق في جوهرها فكرة فلسفية أوردها (الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد) في قصيدة له عنوانها « القمة الباردة » ويحاول تأييد زعمه هذا بإيراد جمل وألفاظ غير مفهومة ، مقتطعة عمداً من المقدمة التي قدم بها الأستاذ العقاد قصيدته ، ومن التوطئة التي مهّد بها الدكتور بشر فارس لمسرحيته ، عبارات ملتقطة في تعسف واقتضاب يجعلها تحتمل وجوهاً من التأويل اللفظي فقط ، قد ينغلق معها المعنى الصريح ، فتنبعث شكوك القارئ . وكأن « الناقد الأديب » ينسى أو هو يتناسى أنه لا يجوز الحكم في قضية بإيراد بعض ألفاظها المنسلخة من قصد مرسوم

ما هي الفكرة الفلسفية التي تقوم عليها قصيدة القمة الباردة ؟

إلى القارىء نص تقديم القصيدة كما أورده الأستاذ العقاد :

« للجبال قمة باردة تعلوها الثلوج ، وللمعرفة كذلك قمة باردة تفتر عندها الحياة . فإذا نظر الإنسان إلى حقائق الأشياء لم ير شيئاً ولم يشعر بشيء ، لأن حقيقتها كلها ذرات ترجع إلى حركة متشابهة في كل ذرة ، فخير له ألا ينظر إلى الحقائق كل النظر ، ولا يعرض عن الظواهر كل الإعراض ، لأن الحيّ لا يعرف الدنيا إلا بالظواهر التي تقع عليها الحواس وتدركها البديهة ، فإذا تجاوز ذلك فقد ارتفع من المعرفة إلى قمتها الباردة التي لا يشعر فيها بحياة »

وجاءت القصيدة بعد ذلك ، وأبياتها في وصف هذه القمة :

هنالك لا الشمسُ دوّارَةٌ ... ولا الأرض ناقصةٌ زائدة
ويابؤس فانٍ يرى ما بدا ... من الكون بالنظرة الخالدة
فذلك رب بلا قدرة ... وحيٌّ له جثـــة هامدة
إلى النور ، أمّا ثلوج الذرى ... فلا خير فيهـا ولا فائدة

والمقصود بثلوج الذرى : حياة الفكر المجرد ، والمقصود بالنور حياة الفكر العملي

وهكذا ترى أن القصيدة ، تقديماً وشعراً ، ما هي إلا عرض وتحليل لمذهب من مذاهب المعرفة . ومسألة المعرفة

La connaisasnce تتعلق بالفلسفة العامة أو ما وراء الطبيعة ، بل إن هذا المذهب الفلسفى بالذات هو مذهب مشهور وصاحبه الفيلسوف الألمانى (كانت Kant) الذي قيد الوصول إلى اليقين بنظريته (النسبية Relativisme) أو (القيسة)[1] القائمة على تحديد إدراك العالم الخارجى ، وهو ينفى أن تستطيع الحواس إدراك الأمور المطلقة أو الحقائق فى ذاتها ، فالمعرفة فى نظر (كانت Kant) نسبية وظاهرة ، قوامها الفهم أو البديهة ، وأدواتها الحواس ؛ فالفكر يُلبس المعرفة شكلها دون المادة ، وأما المادة نفسها فهى فوق إدراكنا وإن كانت موجودة حقاً[2]

وهذا ما فسره الأستاذ العقاد بالذات فى مقدمته بقوله : « لأن الحى لا يعرف الدنيا إلا بالظواهر التى تقع عليها الحواس وتدركها البديهة » !

وأما ما وراء ذلك من طلب المعرفة — وطريقة الفكر المجرد الخالص من فعل الحواس — فيلقى بالمرء فى قمة لا متسع فيها لعمل الفكر ، خارجة عن الحياة « لا الشمس هنالك دوّارة ، ولا الأرض ناقصة زائدة » فإذا المرء : « ربٌ بلا قدرة ، وحىٌ له جثة هامدة »

وخير للمرء أن ينزل إلى الغور ، أى إلى الأخذ بظواهر الدنيا ليستطيع أن يلمسها ويدركها ، فيحيا على قدر ما ركب فيه من إدراك وفهم

هذا ما أراد قوله أستاذنا الكبير العقاد ، وهو من أحسن الشعر وأجوده وأبعده معنى

وبين هـذا المذهب وما نزع إليه فى بعض مسرحياته (هنريك إبسن) زعيم المسرحية الحديثة وشائج قربى ونسب . ومن درس (إبسن) يعرف (قمه المثلوجة) أو قمه الباردة

ولا لوم ولا تثريب على أستاذنا العقاد أن يورد قصيدة من شعره تحمل فى طياتها نزعات فلسفية لمدرسة معروفة . فليس كل شاعر أو أديب مهما نبه ذكره وعلا شأنه بصاحب مدرسة فى الفلسفة système phylosophique والأدب الذى تجنوه لمسات المذاهب الفلسفية الرفيعة هزيل فى كيانه قريب فى معانيه . وإنه لأمر مقبول — بل وواجب — أن يعتنق الكاتب والفنان مذهباً من المذاهب الفلسفية الرفيعة ؛ وهذه هى حالة كبار الأدباء فى أوربا ، فالكاتب ويلز من الآخذين بفلسفة التشوء والارتقاء كما بيّن ذلك الأستاذ (على أدهم) فى عدد قريب من أعداد « الثقافة » ؛ و (بيراندللو) متأثر بأعمال (فرويد) وكذلك (ليوتورمان) و (أندريه جيد)

* * *

ولنر الآن ما ذا أراد أن يقرره بشر فارس فى مسرحية : « مفرق الطريق »

تقوم هذه المسرحية على معالجة حالة نفسية غامضة ، أو على تعقيد نفسى complexe psychologique ، كما يقول علماء النفس اليوم ، مُفادُها : المرأة التى يجذبها الحب وتخاف منه ، والرجل الذى يريد الحب ولا يعرف قدره ، ثم الرجل الذى يريده ولا يستحقه . وهذه قضية من قضايا النفس البشرية ، لا علاقة لها بالمسائل الفلسفية الصرفة اللاحقة بنظرية المعرفة واليقين ، وما يدخل فى باب ما وراء الطبيعة[1] الذى أورده الأستاذ العقاد فى قصيدته ، وعزاه إلى فلسفة (كانت)

والمذهب الذى نزع إليه بشر فارس فى مسرحيته ، قد بسطه فى توطئة مسرحيته بسطاً محكماً ، إذ قرر أنه آخذ بالطريقة الرمزية فلسفة وأدباً وفناً ، فقال فى صحيفة ٦ : « وليست الرمزية ههنا بموقوفة على الرمز بشىء إلى شىء آخر ، ولكنها فوق هذا استنباط ما وراء الحس من المحسوس ، وإبراز المضمر ، وتدوين اللوامع والبواده بإجمال العالم المتناسق ، المتواضع عليه ، المختلق اختلاقاً يكد أذهاننا ، طلباً للعالم الحقيقى الذى نضطرب فيه ، رضينا أو لم نرض ، عالم الوجدان المشرق والنشاط الكامن والجماد المتأهب للتحرك ، إلى ما يجرى بينها من العلاقات الغريبة والإضافات التائهة فى منعطفات الروح ومثانى المادة ، يشترك فى كشفها الإحساس الدفين والإدراك الصرف والتخيل المنسرح »

فالمذهب الفلسفى عنـد بشر فارس غير المذهب الفلسفى عند الأستاذ العقاد

---

(١) والنسبية هنا هى غير نظرية النسبية Relativité عنـد العلامة (أينشتين) طبعا .

(٢) راجع لكل هذا أى كتاب فى الفلسفة ، مثلا (دروس فى الفلسفة ، الجزء الثانى) (نظرية المعرفة واليقين) للعلامة A. Rey الأستاذ بكلية باريس . الناشر Reider بباريس ١٩٢٧

(١) métaphysique

(العقاد) مذهبه النزول إلى ظواهر الدنيا والاطمئنان إليها من غير أن يهمل الحقائق كل الإهمال ، و (بشر فارس) مذهبه الاعتماد على البصيرة والإحساس الدقيق والإدراك الصرف مع إهمال ظواهر العالم وطلب خفاياه وبواطنه ، وهذا من المذهب الباطنى أو التصوفى ، وهو مذهب معروف عند أفلاطون وبلوطنيوس والمتصوفة على أشكالها ، وقد أحكم أمره أخيراً الفيلسوف الفرنسى (برجسون Bergson) وأيدته تجارب عدد من العلماء والأطباء فيما يتعلق بالعقل الباطن . وقد أسهبت فى تبيين هذا المذهب فى المناقشة التى دارت بينى وبين بشر فارس نفسه فى (الرسالة) منذ عامين

وقد أحدثت آراء (برجسون) بدورها تيارات واسعة تأثر بها كثير من الكتاب ، وأحدثت نوعاً من أنواع الشعر الرمزى فى فرنسا

فأين بصيرة (برجسون) التى أخذ عنها بشر فارس فى معالجته قضية من قضايا النفس البشرية ، وذلك فى مسرحية (مفرق الطريق) ، من المسائل الفلسفية الصرفة اللاحقة بنظرية المعرفة واليقين للفيلسوف (كانت Kant) التى تأثر بها الأستاذ العقاد فى قصيدته (القمة الباردة) ؟

إذن يكون حقاً من عجائب الفهم أن يتهم (الناقد الأديب) بشر فارس بأنه أخذ مسرحيته هذه من تلك القصيدة

ويكون أيضاً من عجائب الفهم ومدهشاته أن يلج (الناقد الأديب) فى اتهامه هذا ، محاولاً أن يقيم الشواهد على ما ذهب إليه ، فإذا هو يتسف ، بل هو يغالط ولا يبالى أن يحرف المسائل عن مواضعها ، فقال إن فى قصيدة العقاد يعيش العقل متجرداً من الشعور فى عالم ثلجى لا يشعر فيه بحياة . فأين ورد هذا فى قصيدة العقاد وتقديمها ؟ ؟

كذلك أورد (الناقد الأديب) ألفاظاً كالعقل والشعور والثلج ، وقد غاب عن ذهنه أن الثلج عند (العقاد) رمز إلى ابتعاد المرء عن ظواهر الدنيا وتقربه من الحقائق وتمسكه بالفكر المجرد . هذا فى حين أن (الثلج) عند بشر فارس ، رمز إلى خلاص النفس من ألم الإحساس البشرى

وتورط (الناقد الأديب) فيما هو أدهى من هذا ، وهو يحاول أن يقرب مسرحية (مفرق الطريق) من قصيدة (القمة الباردة) للعقاد فنسب تصميم رسم غلاف المسرحية إلى بشر فارس نفسه ، والواقع أن صاحبة الرسم فنانة باريسية اسمها « سوزان جوفروا » كما هو موضح فى الصفحة الأولى من المسرحية المطبوعة . وقد شرح المؤلف وضع المسرح فى (التبيين) الذى صنعه للمسرحية (ص١٤٠) مشيراً إلى رمز الغلاف ، ولم ترد فى تبيينه كلمة « قمة » ولا « غور »

بعد هذا يأتى اتهام آخر له وزنه فيقول (الأديب الناقد) إن الصراع « بين العقل والشعور » وهو مما ورد فى مسرحية بشر فارس ، منقول بإطاره من قصيدة الشاعر على محمود طه المهندس عنوانها « قلبى »

والرد على هذا أن الصراع بين العقل والشعور حقيقة من حقائق النفس البشرية ، فهى عامة ومبذولة لكل كاتب ، وما نعرف كاتباً أو شاعراً — إلا فيما ندر — لم يبن على هذه الفكرة بعض مؤلفاته . وإلى القارئ أعمال (راسين) الفرنسى و (شاكسبير) مثلاً شاهدة على ذلك . وما (الشاعر المهندس) إلا واحد ممن أخذوا بهذه الفكرة العامة . وستبقى هذه الفكرة ، كما كانت دائماً ، معيناً يأخذ منه الكتاب ما دامت النفس البشرية لم تتغير ، وما دام الكتاب يعنون بتسجيل خفايا هذه النفس

وإن صح ما ذهب إليه (الناقد الأديب) فى هذا الصدد ، يكون الأستاذ الكبير توفيق الحكيم الذى أقام مسرحيته الرفيعة « شهر زاد » على فكرة الصراع بين المادة والروح قد سلخ هذه الفكرة ممن سبقه إليها فى الأدب العالمى ويكون الحال كذلك فى مسرحيات (إبسن وشكسبير وبيراندللو) الذين أقاموا مؤلفاتهم على حقائق النفس البشرية

إن المعانى والفكر المتداولة أشياء يشترك فيها جميع الناس فهى دوارة فى نفس الجاهل والسوق ، والمتعلم والأديب ، وإنما العبرة بطرائق معالجتها وبالكسى التى تضفى عليها من حيث حسن التأليف وجودة التركيب والابتداع ، والنفس المبتكر الخلاق ، وهنا مجال التفاوت بإبراز الشخصية الكاملة المستقلة ؟ ومن هنا يتأتى الخلود الذى يتوج أعمال الشعراء والكتاب والفنانين .

زكى طليمات